تطبيق 07/ شعر ابن خفاجة

يعد شعر ابن خفاجة من النوع الوجداني الإبداعي المملوء بالصور الجميلة والأخيلة الرائعة ، واشتمل شعره على جميع الأغراض الشعرية المتداولة : الغزل ، والرثاء ، والمدح ، والفخر ، والشكوى ، وما إلى ذلك ، ولكن اشتهر بوصف الطبيعة ومناظرها الجميلة الساحرة ، وفي الجانب الآخر نجد في جميع أغراضه الشعرية لون وصف الطبيعة ، حتى إنه قد مزج الطبيعة بالرثاء ، إن ابن خفاجة قد أقدم في جرأة على هذا النهج الجديد من مزج الطبيعة بالرثاء الذي لا شك فيه ، ذلك لأن الطبيعة الفاتنة تمثل مولد الحياة وبهجتها وغناءها وبسمتها ، والرثاء نهاية الحياة وآلامها ، وبكاؤها والحسرة عليها ، وهذا الجمع بين نقيضين وهو صعب جداً لكن ابن خفاجة جمع بين ضدين بأسلوب جيد وبطريقة أنيقة ، وقد استخدم في شعره أنواع البيان والبديع من الاستعارات والتشبيهات والجناس والطباق فصعبت معانيه أحياناً على القراء .

نبذة عن حياة ابن خفاجة :

ولد أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة سنة 450هـ في جزيرة (شُقر) من أعمال بلنسية ، وهي تقع شرقي الأندلس وسميت جزيرة لان نهر شقر يحيط بها من جميع جهاتها ، فجعلها جنة من جنان الأندلس .
وكان شاعراً مفلقاً ، وأديباً موهوباً ، وكاتباً بليغاً وتطرق إلى جميع الأغراض الشعرية ، لكن غلب شعره في وصف الطبيعة ، فوصف الأشجار والأثمار والحدائق والبساتين، وقد نشأ وترعرع ابن خفاجة في مهد العلم والفضيلة ، فأقبل على الدرس ، وحفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية ، ودرس الشعر والنثر وعلوم اللغة وتضلع في جميع العلوم الإسلامية ، لكن مال إلى دراسة الأدب والتعمق فيه .

وبعد أن بلغ به الكبر عتياً ، ندم على ما فاته ، وابتعد عن لهو الصبا ومجونه ، وأخذ يفكر دائماً في مآله ، فأخذ يقرض الأشعار في العظمة والاعتبار ، والتوبة والابتهال والاستغفار .

وقد حدثنا الفتح بن خاقان في قلائد العقيان عن توبته ، فقال : '' إلا أنه قد نسك اليوم نسك ابن أذينة ، وغضّ عن إرسال نظره في أعقاب الهوى عينه ، وقد أثبت ما يقف عليه اللواء ، وتصرف إليه الأهواء '' .
وقد نقل الفتح بن خاقان قول ابن خفاجة ما أخبره به من خبر توبته فقال : '' أخبرني أنه لما أقلع عن صبوته ، وطلع ثنية سلوته ، والكهولة قد حنكته ، وأسلكته من الإرعواء حيث سلكته ، نام فرأى أنه مستيقظ ، وجعل

يفكر بما مر من شبابه ، وفيمن ذهب من أحبابه ، يبكي على أيام لهوه ، وأوان غفلته وسهوه ، ويتوجع لسالف ذلك الزمان ، ويتبع الذكر دمعاً كواهي الجمان ، ثم استيقظ وهو يقول :

ألا ساجل دموعي يا غمام وطارحني بشجوك يا حمام

فقد وفيتها ستين حولا ونادتني ورائي هل أمام

وكنت ومن لباناتي لبيني هناك ومن مراضعي المدام

يطالعنا الصباح ببطن حزوي فيرفعنا وينكرنا الظلام

وكان به البشام مراح أنس فماذا بعدنا فعل البشام ؟

فياء شرخ الشباب الإلقاء يبل به على برح أوام

ويا ظل الشباب وكنت تندي على أفياء سرحتك السلام

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها ، وقد امتلأت نفسه وعينه من جمال الطبيعة وجمال الحياة ، كما قال ابن خاقان في كتابه : " وابن خفاجة هذا هو مالك أعنّة المحاسن وناهج طريقها ، العارف بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها ، الراقم لبرودها ، المجيد لإرهافها ، العالم بجلائها وزفافها ، تصرّف في فنون الإبداع كيف شاء ، وأبلغ دلوه من الإجادة الرشاء ، فشعشع القول وروّقه ومدّ في ميدان الإعجاز طلقه ، فجاء نظامه أرق من النسيم العليل ، وآنق من الروض البليل ، يكاد يمتزج بالروح ، وترتاح له النفس كالغصن المروح ، إن وصف فناهيك من غرض انفرد بمضماره ، وتجرد بحمى ذماره ، وإن مدح فلا الأعشى للمحلق ، ولا حسان لأهل جلّق ، وإن تصرف في فنون الأوصاف ، فهو فيها كفارس خصّاف " .

وابن خفاجة لم يترك مظهراً من مظاهر الطبيعة إلا وصفه بأبيات جميلة معبرة من الأوصاف والتشبيهات ما تطير له النفس ارتياحاً وقبولاً وإعجاباً وأخبرنا الفتح بن خاقان أن ابن خفاجة كان يقرض الشعر مرتجلاً ، فقال : " أخبرني أنه لقي عبد الجليل الشاعر بين " لورقة " و " المرية " فباتا ليلتهما " بلورقة " يتعاطيان أحاديث حلوة المشاق ، ويواليان أناشيد بديعة الاتساق إلى أن طلع لهم الصباح ، ومرا بمشهدين عليهما رأسان باديان ، وكأنهما بالتحذير لهما مناديان ، فقال أبو إسحاق مرتجلاً :

ألا رب رأس لا تزاور بينه وبين أخيه والمزار قريب

أناف به صلد الصَّفا ، فهو منبر وقامَ على أعلاه فهو خطيب

فقال عبد الجليل مسرعاً :

يقول حذار الاغترار فطالما أناخ قتيل بي ومرّ سليب

وينشد كلانا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

فإن لم يزره صاحب خليله فقد زاره نسر هناك وذيب

وقال الذهبي في كتابه " سير أعلام النبلاء " :

" شاعر وقته ، له ديوان مشهور ، ولم يتعرض لمدح ملوك الأندلس ، وهو القائل :

وعشي أنس أضجعتني نشوة فيه تمهّد مضجعي وتدمّث

خلعت عليّ به الأراكة ظلّها والغصن يصغي والحمام يحدّث

والشمس تجنح للغروب مريضة والرعد يرقى والغمامة تنفثُ

نقل الصفدي قول ابن بسام في كتابه : " كان مقيماً بشرق للأندلس ولم يتعرض لاستماحة ملوكها مع تهافتهم على أهل الأدب ، وله ديوان شعر موجود قد أحس فيه كل الإحسان ، عاش ثلاثاً وثمانين سنة توفي من جزيرة (شُقر) سنة533هـ ".

مكانته :

لقد كان لابن خفاجة مكانة رفيعة في نفوس الأندلسيين ، وكانوا يعجبون به وبشعره حتى ليرفعوه إلى الأفق الأعلى ، يقول الفتح بن خاقان في كتابه ويصفه وصفاً دقيقاً : " مالك أعنة المحاسن وناهج طريقها العارف بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها ، الراقم لبرودها ، المجيد لإرهافها ، العالم بجلائها وزفافها " .

وبهذه المكانة الرفيعة المتميزة استحق ابن خفاجة لقب " صنوبري الأندلس " كما وصفه المقري في النفح وصفاً تامّاً : " وكان صنوبري الأندلس أبو إسحاق ابن خفاجة ، وهو من رجال المسهب والمطرب والمغرب ، وشهرته تغني عن الإطناب فيه ، مغري بوصف الأنهار والأزهار ، وما يتعلق بها ، وأهل الأندلس يسمونه الجنان.

شعره :

أما شعره فهو من النوع الوجداني الإبداعي المملوء بالصور والأخيلة ، كما قال أحمد حسن الزيات في وصف شعره : " ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها ، قد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة ، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي " .

وطرق شعره إلى جميع الأغراض الشعرية : الغزل والوصف والمدح والرثاء والشكوى والعتاب والفخر ، لكن اشتهر بوصف الطبيعة ومناظرها الجميلة الساحرة ، وفي الجانب الآخر نجد في جميع أغراضه الشعرية لون وصف الطبيعة ، فإذا مدح أو رثى أو تغزل نجد الطبيعة في مدحه ورثائه وتغزله ، وأما وصفه للطبيعة فلا يختلف في ذلك أحد ، وصار أفضل شاعر بوصفه الأندلس .

كما قال المقري : " وهل منكم من برع في أوصاف الرياض وما يتعلق بذلك فانتهى إلى راية السباق وفضح من طمع بعده في اللحاق وهو أبو إسحاق ابن خفاجة "

هناك عوامل كثيرة لعبت دوراً هاماً في جعله أشهر وصافي الطبيعة وجعله شاعر شرقي الأندلس ، منها ما كان خارجياً ، ومنها ما كان داخلياً ، فالطبيعة الأندلسية بجمالها عامةً ، وما امتازت به جزيرة شقر خاصةً من أنهار وأزهار ورياض وبساتين ، وهذه الطبيعة قد سحرت ابن خفاجة ، واستولت على لبه وعقله بل إن هذه الصلة الوثيقة بها قد أثرت في نفسه أثراً بالغاً ، ويرى الأندلس على أنها جنة الخلد ، فيقول :

يـا أهـل الأنـدلس لله دركـم مـاء وظـل وأنـهـار وأشجار

مـا جـنـة الـخلد إلا في دياركم ولو تـخيرت هذا كنت أختار

لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وهناك باعث آخر قد زاد من إقبال ابن خفاجة على وصف الطبيعة والتغني بها وهو حياة اللهو والمجون وشرب الخمر ومجالس اللهو والطرب ، وهذه الحياة كانت أهم عامل في تطور وصف الطبيعة لديه ، وقد وصف لنا ابن خفاجة هذه المجالس في صورة الأشعار منها ، ما يتغني بمجلس لهو ويصف ما فيه من شراب وروض وماء وحمام :

سقيًا لـيوم قد أنختُ بسرحةٍ ريّا تُـلاعـبُها الـشـمال فتلعب

سـكـرى يغنّيها الحمام فتنثني طربـاً ويـسـقيها الغمام فتشرب

يـلـهــو فـتـرفع للشبيبة راية فـيـه ويسرج للتصابي مركب

ويكرمن كأس المداحة أشقر يجري ويطلع للسلافة كوكب

والـروض وجـه أزهـر والظل فر غٌ أسـود والـمـاء ثـغـر أشنب

ولقد صوّر لنا ابن خفاجة في أشعاره مظاهر الطبيعة الأندلسية من أشجار ورياض ، وأزهار وأنهار ، وحيوانات ونجوم وشموس وأقمار ، فقد تناول في أشعاره ما وقع عليه بصره من بيئته الطبيعية الجميلة ، فأجاد وأبدع فاستحق

بوصف لقب الجنان ، ويتناول الباحث بعضاً من أشعاره في وصف الطبيعة ، ومن أجود أشعاره في وصف الأزهار وهو يصف زهرة الخيري ذات المنظر الناعم الهادئ والعبير الفواح العطر الذي يفوح ليلاً فيرسم لها هذه الصورة :

وخيرية بين النسيم وبينها حديث إذا جَنّ الظلام يطيبُ

لها نَفَسٌ يَسرى مع الليل عَاطِرٌ كأن له سرا هناك يريب

يدبُّ مع الإمساء حتى كأنما له خلفَ أستارِ الظلام حبيبُ

ويخفى مع الإصباح حتى كأنما يظل عليه الصباح رقيب

ويرى ابن خفاجة شجرةً منورةً كساها نورها فتنة وبهجة فيصفها وصفاً جميلاً وقد تراكمت عليها قطرات الندي ، فيقول :

يا رب مائسة المعاطف تزدهي من كل غصن خافق بوشاح

مهتزة يرتج من أعطافها ما شئت من كفل يموج رداح

نفضت ذوائبها الرياح عشية فتملَّكتها هزّة المرتاح

حطّ الربيع قناعها عن مفرق شمط كما ترتد كأس الراح

لفاء حاك لها الغمام ملاءة بست بها حسنا قميص صباح

نضح الندي نوارها فكأنما مسحت معاطفها يمين سماح

ولوي الخليج هناك صفحة معرض لثمت سوالفها ثغور أقاح

إن الشعراء الأندلسيين مزجوا الطبيعة بشعر الهموم والشكوى ، وهذا أمر جديد ، لكن مزج الطبيعة بالحزن والبكاء عند الأندلسيين أمر عجيب وهذا شيئ جديد لا يوجد له نظير في نتاج الشعر العربي .

ومن أروع الأبيات التي قالها ابن خفاجة في رثاء الوزير أبي محمد عبد الله ابن ربيعة :

في كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء

ولكل شخص هزة الغصن الندي غبّ البكاء ورنّة المكّاء

يـا مـطلـع الأنـوار إن بـمقلتي أسـفا عـليك كمنشأ الأنواء

وكـفى أسـى أن لا سـفير بيننا يـمشـي وأن لا مـوعـد للقاء

فـيـم الـتـجـمل في زمان بزّني ثوب الشبـاب وحـلـية النبلاء

فـعـريـت إلا مـن قـناع كآبة وعطلت إلا مـن حـلي بكاء

فـإذا مـررت بـمـعـهـد لشبيبة أو رسم دار للـصـديـق خلاء

جـالـت بـطرفي الصبابة عبرة كالغيم رقَّ فحال دون سـماء

ورفـعـت كفي بين ظرف خاشع تـنـدي مآقيه ، وبين دعاء

وبـسـطـت في الغبراء خدي ذلة استنزل الرحمى من الخضراء

متـمـلـمـلا ألـماً بـمصرع سيد فقد كان سابق حلبة النجباء

لا والـذي أعـلـقت من قدسيته كـفِّي بحبلى : عصمة ورجاء

وخـررت بـيـن يـديه اعلم أنه ذخـري لـيـومي شدة ورخاء

لا هـزني أمل وقد حل الردى بأبي محمد في المحل النائي

المرجع

https://albasulislami.com/%D9%88%D8%B5%D9%81-%D8%A7%D9%84%D8%B7%D8%A8%D9%8A%D8%B9%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%B4%D8%B9%D8%B1-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D8%AE%D9%81%D8%A7%D8%AC%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%B3%D9%8A/